من سجن الأسطورة إلى رحم التاريخ

رحلة البحث عن الذات في الشعر النسوي الإيرلندي



د . فاطمة إلياس

(كتيب) المجلة العربية (١٣٢)

العدد الثاني والثلاثون بعد المئة - ذو الحجة ١٤٢٨هـ - يناير ٢٠٠٨م

لعهد طويل، أربكت النظرية الأبوية patriarchy، ونظرية سيطرة الرجل الأدبية literary patriarchy النساء الأديبات. كما أنها تسببت في إحداث موجة من القلق العظيم في أوساط هؤلاء النسوة، اللاتي كن على قدر كاف من الجراة، مكنتهن من محاولة اقتحام الكتابة. فالنساء في كثير من المجتمعات وعلى مدار التاريخ، قد تم تهميشهن فكن مجرد ممتلكات خاصة، وموضوعات واخيلة قابعة في مؤلفات الرجل. منذ حواء ومينيرفا وصوفيا، وغيرهن ممن يمكن أن نجدهن أيضاً في تراثنا العربي، أمثال عشتار وبلقيس وزنوبيا، دأبت (الميثولوجيا) أو الأسطورة التي ابتدعها الرجل، على تصوير النساء وكأنهن مخلوقات خارقة؛ وتبعاً لذلك فقد ظلت النساء في مؤلفات الرجل حبيسات لهذه الصور والأخيلة المتطرفة أو المبالغ فيها، بلا صوت يعبرن به عن الإحساس الكبير بالرهبة والظلم، إذ تم تحديد هويتهن ضمن تلك النماذج الخالدة للملاك والشيطان. وعلى حد قول الناقدتين النسويتين ساندرا جيلبرت Sandra Gilbert وسوزان جوبر Susan Gubar في كتابهما: «المجنونة في العلية» Madwoman in the attic فإن المراة ليست فقط منفية من الثقافة، لكنها هي نفسها أضحت تجسيدا لتلك النماذج المفرطة، ولكل ما هو غامض وبعيد ومختلف، والذي عادة ما تواجهه الثقافة إما بالتقديس أو الخوف، وإما بالحب أو الاشمئزاز، (١٩).

ولقد ميزت الناقدات النسويات أنواعا متعددة من الصور والأنماط

البدائية للمرأة في ثقافات مختلفة، كتلك التي تصور المرأة على أنها «النصف الآخر الجميل»، «مادة الجمال» aesthetic object، «المرأة الأم» رمز التضحية، و«المرأة الماكرة» cunning woman وفي الثقافة السلتية التي تنتمي إليها إيرلندا القديمة، نجد صوراً مشابهة في شخصيات أسطورية مثل، .Etain, Medbh, Grannia. Deirdr,Niamh,Nesa,etc، إلا أن الأدب الغيلي/الإيرلندي قد تميز بتشبيهه المستمر للأرض بالمرأة ليتطور هذا التصوير المجازي للمرأة باعتباره رمزاً، وأيقونة للوطن والهوية المفقودة، بدءا من مجموعة القصص الأسطورية التابعة لشمال إيرلندا والتي تعود جذورها إلى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، وحتى الأيام الأخيرة للأدب الغيلي أو السلتي/التي أفرزت ما كان يدعى بقصيدة الرؤيا أو قصيدة التنبؤ the Aisling Poem، وصولاً إلى القرن التاسع عشر الذي تميز بالشعر الوطني المكتوب باللغة الإنجليزية. والذي كان مفعماً بالعواطف الوطنية والنضالية الجياشة. وبوصوله بعد ذلك إلى القرن العشرين، بلغ هذا التقليد الشعري في تصوير المرأة أوج استخدامه على يد الشاعر ييتس Yeats الذي نشر التشبيه الرمزي لإيرلندا في شعره ومسرحياته إبان المرحلة الرومانسية في مسيرته الشعرية، وذلك من خلال شخصية كاثلين ني هوليهان Kathleen Ni Houlihan المشهورة والتي جعل منها رمزا مجازيا لإيرلندا.

وهكذا ومنذ الأفول السلتي وحتى الستينيات، ظلت المرأة كما هي

مجرد رمز للوطن. واستمرت هذه الصورة على يد الشعراء الإيرلنديين المعاصرين من الرجال أمثال ثوماس كينسلا Thomas Kinsella، وجون مونتاجيو John Montague وغيرهما ممن تأثروا بالتقليد الشعري القديم من حيث تشبيه الأرض بالمرأة. لكن شعرهم وبالرغم من الرومانتيكية الحالمة التي ميزت بداياته، لم يتحرر من نظرته الدونية للمرأة، واعتبارها مجرد أداة يستنطق بها الشاعر تجربته-هو- كرجل وليس كإنسان تشمل تجاربه المرأة أيضاً. ومن هؤلاء الشعراء المعاصرين يبرز شيمس هيني Seamus Heaney بصوره ورموزه المتعبة والغامضة للمرأة التي ابتدعها، برؤيته التنبؤية والفريدة لإيرلندا، ونظرته التنبؤية للجيش الإيرلندي على أنه تجسيد للبربرية، وكذلك رفضه لأسطورة المرأة الإلهة التي استخدمها ييتس Yeatsلتجسيد الجمهورية الإيرلندية وأخلاقياتها. هذا بالإضافة الى توظيف هيني للأسطورة البدائية في تشبيهه لإيرلندا بالفتاة التي يغويها ويغتصبها رجل استبدادي يرمز إلى إنجلترا، لتحمل بعدها بطفل غير شرعي يمثل الشمال المغلوب على أمره.

وكردة فعل على هذا الناموس الشعري الذكوري، فقد علت بعض الأصوات النسائية المؤثرة والقوية أمثال Eavan Boland, Nh Chuilleanain, Medbh MckGukian ,Eithen Strong وغيرهن. وعلى الرغم من أن هؤلاء الشاعرات يكتبن في جزيرة تحكمها التقاليد

والأعراف الاجتماعية، إلا أنهن فنانات مستقلات يحاولن جاهدات خلق وإيجاد صورٍ جديدة للمرأة. لقد بدأت الشاعرات الإيرلنديات المعاصرات في تحدي تلك الصور النمطية للمرأة، وكذلك الرموز التي قرنها الكتاب الرجال بها. وعبرت هؤلاء الشاعرات عن موقفهن التصحيحي من خلال القضايا والموضوعات الأنثوية البحتة التي تظهر الحقائق المتعلقة بحياتهن كنساء وتبرزها، وفي الوقت نفسه تضفي على أشعارهن الصدق والمرجعية والأصالة في خضم تحديهن للتقليد الأدبي الذي سبق وأن أخرس صوتهن الأنثوي والنضالي والإبداعي. كما وجدت هؤلاء النساء في (الميثولوجيا) أو الأسطورة فرصة لأن يصبحن جزءاً من الكيان الثقافي وأن يتصلن عبرها بالتراث الأدبي القديم. يضاف إلى ذلك أن الوسط الأسطوري سيمنح قوة وصفة دينية وأدبية على ما اصطلح ثقافيا على تسميته بالأنثوية the Feminine. لذلك تبنت معظم الشاعرات، خاصة اللاتي يكتبن من خلال الأجندة النسوية، أو تأثرن بأطروحات النقد النسوي بمدارسه الأمريكية والفرنسية، مشروع مراجعة الأسطورة والتاريخ في حركة تصحيحية للتقليد الشعري الذكوري، مما سيتمخض عنه في النهاية نسخا جديدة ومعدلة و«مأنسنة"»لبطلات الزمن الغابر.

■●■

الشاعرة إيفان بولاند، -باعتبارها شاعرة مؤثرة في أوساط دبلن

العاصمة الأدبية المعاصرة، Eavan Boland- تكتب شعرا تسبر فيه اغوار الهوية الشعرية للمراة الإيرلندية. وهي تنشد في شعرها توضيح الصلة الوثيقة بين القضايا النسائية الخاصة النابعة من تجاربها الواقعية، وبين العالم الخارجي المحيط بها، والوثيق الصلة بالتاريخ الإيرلندي/السلتي. لذلك فقد أصبحت كتاباتها عاملاً رئيساً في تشكيل وجدان النساء وإحساسهن بأنفسهن، من خلال الموضوعات التي تطرقت اليها في كتاباتها بدءا من التاريخ الإيرلندي، والأساطير والقصص الخرافية، وحتى الموضوعات المعاصرة والمعيشة كتلك المرتبطة بحياة سكان الضواحي، والعلاقات الحميمة بين الأزواج ومسؤوليات الأم، والرضاعة، والغلاية وأواني الطبخ... إلخ.طبعاً من خلال ارتباطها بالقيم الأنثوية، والكشف عن دلالاتها الإنسانية.

ومجموعة بولاند الشعرية تتضمن:

إقليم جديد New Territory، ١٩٦٧ .

حصان الحرب War Horse، ١٩٧٥,

في صورتها الخاصة In Her Own Image، ١٩٨٠ .

رضعة الليل Night Feed، ١٩٨٢ .

الرحلة The Journey، ١٩٨٧ .

خارج التاريخ Outside History، ١٩٩٠ .

في زمن العنف In a Time of Violence، ١٩٩٥ .

أصل كأنه الماء An Origin Like Water، ١٩٩٦ .

والأرض المفقودة The Lost Land، ١٩٩٨ .

وكناقدة في صحيفة التايمز الإيرلندية Irish Times، فقد كتبت بولاند عدداً من المقالات والدراسات المهمة عن وضع الكتابة في إيرلندا، ووضع الكاتبات والأديبات بصفة خاصة. ولها كتابان مهمان هما: وكأنها ندبة: المرأة الشاعرة وسط تقليد قومي A kind of Scar: The woman Poet in a National Tradition (1989) وفيه تلقي الضوء على النقلة المفاجئة للنساء الإيرلنديات إذ أصبحن مؤلفات للقصيدة بعد أن كن مجرد أيقونات وموضوعات أو أدوات فنية فيها. أما الكتاب الثاني فقد أسمته: دروس عملية Object Lessons(1995) ويحتوي على مادة سير ذاتية، ورحلة استكشافية لصنعة الشعر وطقوسه.

وكتابات بولاند النقدية وآراؤها، التي تفصح عنها سواء في مقالاتها أو لقاءاتها، وجميعها توضح نظرياتها النسوية في مواجهة التقليد الأدبي الذكوري وتصديها له. ولكن تبقى قصائدها خير شاهد على نضالها وهو نضال ضروري لإحداث التغيير الذي سيجعل منها نموذجا لبقية الشاعرات اللاتي يتطلعن مثلها إلى خلق مكان لهن في الكيان الشعري، والخروج من دائرة التهميش.

وتركز إيفان بولاند في تجربتها الشعرية على أهمية النظر والاستماع خارج التاريخ المكتوب Recorded History وهو تاريخ خاص

بالرجل his-story، من أجل فهم المعاناة الحقيقية التي تحملتها النساء على مدى التاريخ، واكتشاف التعقيدات التي أحاطت بماضيهن الشخصي والقومي، لتصل في النهاية إلى فهم التفاصيل الواقعية لحقيقة هوية المرأة. لذلك فهي تعترض على التصوير الأسطوري للمرأة والذي من وجهة نظرها يمثل قلق الرجل وتهيبه من الاعتراف بحقيقة وجود المرأة وليس حقيقة الماضي الذي عاشته النساء، والمعاناة التي تمثل تاريخهن الحقيقي. ومن هنا تكمن أهمية رؤية بولاند الجديدة للتاريخ والتصور الجديد للماضي في شعرها الذي يكشف عن موقفها التصحيحي من التاريخ، ومراجعتها للأسطورة وتطويعها لها، ومن ثم إعادة سردها،لتتمكن في النهاية من خلق نص شعري body of poetry يصف التجربة الحقيقية للمرأة العادية في الماضي والحاضر. لقد أعادت إيفان بولاند تشكيل ورسم صورة المرأة من خلال إعادة سرد القصص الأسطورية بعد مراجعتها، وإعادة تصوير وتخيل القصص القديمة بإقحامها أحداثا واقعية وذكريات شخصية، ونساء حقيقيات في هيكل تلك القصص الأسطورية القديمة myths & legends لتنزع عنها الصفة الأسطورية وتحول أحداثها العظيمة إلى أحداث عادية، وبطلاتها الحقيقيات إلى نساء بسيطات، مما نتج عنه في النهاية صورة جديدة للمرأة تعكس بصدق حقيقتها، وتدخلها إلى حظيرة التاريخ الذي لفظت منه من قبل. ونلمس ذلك في كثير من قصائدها بدءا من

قصيدة" اسمع. هذا هو صوت الأسطورة Listen.This is the Noise of Myth من ديوان «الرحلة» The Journey، التي تمثل التوتر الذي تغالبه الشاعرات عند تجسيدهن لقصص الحضارة القديمة أو الأساطير.

ديوانها الأرض المفقودة

وفي ديوانها «الأرض المفقودة» The lost Land، تتقمص بولاند في عدة قصائد شخصية «يريز» Ceres، النسخة الرومانية من «ديميتر» Demeter آلهة الخصب التي علمت المزارعين غرس الحقول وجمع المحصول، والتي كانوا يحبونها هي وابنتها «برسفونة» Persephone، أسطورة الربيع. لكن سعادتها وسعادة الأرض تبددت بعد اختطاف ابنتها. ومن دورة اختفاء برسفونة وعودتها إلى أمها لتعيش نصف السنة بجانبها، تشكلت الفصول الأربعة. ومن هنا فإن قصائد هذا الديوان في مجملها خريفية وسير ذاتية، كما هي معظم أعمال النسويات الإبداعية بدرجة أو بأخرى. وفي هذه القصائد تبدو امرأة في منتصف العمر، وهي تراقب ابنتها وذاتها الشابة، وهي تتقهقر وتتراجع من المشهد أمام ناظريها لتجد نفسها في أرض بعيدة وغريبة. في هذه القصائد يثار أيضاً سؤال الاستعمار colonization استعمار أناس لا حول لهم ولا قوة من قبل من هم أقوى وأكثر غلبة وسطوة. ومن ذلك استعمار الرجال للنساء. ويمثل اختيار بولاند لسيريز في سردها الشعري المؤسطر الجهد الذي تبذله المرأة الشاعرة للتماهي مع

الشخصيات الأسطورية التي تعتبرها هي -وليس «الآخر» الرجل - مناسبة وذات معنى. تنشر سيريز/ ديميتر Ceres/ Demeter الخصوبة وتضحي من أجل الأرض ودورة الحياة، و تفعل النساء اللاتي تصفهن بولاند ذلك أيضاً، وكذلك تفعله بولاند نفسها بممارستها للأمومة على الرغم من شعورها بأن زملاءها الشعراء الرجال سوف يعتبرون ذلك أقل شعرية، وينظرون إليها على أنها نصف شاعرة، أو «Not fully a poet»، وتلك مشكلة تعيها بولاند تماماً.

وفي هذه القصائد، تخطو بولاند خطوات حثيثة نحو صياغة دورجديد للشاعرة الإيرلندية، ولجميع النساء والتغني بهذا الدور بصوت جديد. إنها المواطنة، ابنة هذه الأرض؛ تصرخ في وجه الرجل الشاعر، مصنوعة من تخيلاتك، من تسوياتك التوفيقية، أنا جزء من قصتك وتقليدك. وهذا الدور الجديد هو الدور الذي تنادي به الناقدات النسويات من أجل إعادة رسم صورة المرأة، وإعادة صنع الأسطورة ومراجعتها revisionist mythmaking. وقد أخذت بولاند على عاتقها من خلال دراساتها النقدية وشعرها تسجيل تناقضات المجتمع الذي همش المرأة، وأخرس صوتها. كما أن أساطيرها حديثة ومعاصرة، وهي، خلافا للأساطير القديمة الذكورية بامتياز، تحكي قصص بطلات اليوم. ففي قصيدة «اللا بطولي» Unheroic، على سبيل المثال، تعلن بحزم أنها لا تعود إلى الماضي لتبحث عن رجال وضعوا في مرتبة تفوق مرتبة

اليقين، الذي يقفون عليه، لكنها تتجه إلى شخوص فعلية وحقيقية، ليست جزءاً من «أبطال التاريخ». وهذا ما عبرت عنه مواطنتها الناقدة والشاعرة إيلين ني كويليان Eilean Ni Chuilleanain في كتابها الصورة والإنجاز : Image and Achievement :

خارج الأسطورة، وخارج الخرافة، وخارج الشذرة السير ذاتية لفرد خارق، يطل تاريخ النساء، ليس كسلسلة من الأحداث مربوطة كيفما اتفق، ولكن كدراما لقوى بشرية تتشكل تدريجيا لتتلفظ بحوار وجدال حول طبيعة المرأة وقدراتها ووضعها ومكانها في هذا الكون(٢).

مكان المرأة (woman's place)، إذن هو جوهر «النضال النسوي» في شعر إيفان بولاند. وأقل ما تنشده بولاند في شعرها هو العثور على ماتم تضييعه أو التعتيم عليه عن سبق إصرار وترصد. وهي تكتب عن «الأرض المفقودة» (the lost land) كمكان ليس بالضرورة أن يكون موطناً؛ ولا يعني بالتحديد وضعاً مزاجياً أو حالة ذهنية، ولا حتى مكاناً يمكن تقسيمه بجاهزية إلى تاريخ او حب أو ذاكرة. إنه مكان الشاعرة الخاص ومملكتها تصوره كتفسير فردي خاص لذلك الإقليم الشبحي بعض الشيء حيث تختزن غالبية التجربة الإنسانية. وهي باهتمامها الدقيق بالتفاصيل الخاصة لحياة المرأة العائلية وشؤونها الداخلية domestic live قد حققت إنجازا بارزا. فهي تعلي من شأن تفاصيل حياة النساء الخاصة، وتضفي عليها أحيانا بعض الصبغة السياسية مجازا

اوتصريحا. ففي قصيدة «امرأة في المطبخ» (Woman in Kitchen) تشير بولاند إلى الحرارة الاستوائية المتولدة عن نشافة الغسيل الدوارة ثم بعدها تصور نافذة الغسالة القمرية الشكل ومنظر الألتين في غرفة بيضاء باردة أشبه ما تكون بمستودع للجثث. وهذا يوضح مسألة الأسطورة وقوتها الخلاقة والخانقة في آن واحد. ذلك لأن نساء بولاند وصوتها الشعري الخاص مصممون على الخروج من دائرة الأسطورة إلى فضاء التاريخ ليصبحوا «جزءاً من المحنة» (part of the ordeal) التي مر بها، وعانى منها الإيرلنديون والإنسانية جمعاء، كما في قصيدتها «خارج التاريخ Outside history»، وبألم ومرارة، تعترف بولاند بذلك وتتصدى لمراجعة الأسطورة وتصحيح التاريخ. وبإحيائها صوت المرأة ووضع حد لصمتها، تنهمك بولاند وتعكف على كثير من الأعمال التحريرية الإبداعية.

الانسلاخ عن الشعر الذكوري

وعندما تكتب بولاند عن ضواحي المدينة suburbia وغسالاتها الآلية ونشافاتها، وروتينها والأعباء المنزلية المتواضعة، فإنها تكون قد بدأت في التعبير عن شيء من الوعي السياسي، كان مفقوداً في شعرها المبكر، الذي اتبعت فيه التقليد الشعري الذكوري قبل أن تنسلخ عنه؛ حين كانت تمزج فيه بين الأساطير والأعمال الكلاسيكية، وحين كانت بطلاتها أثينا Athene، وإتين Etain ونساء ييتس Yeats؛ وقبل أن تستبدلهن بالنساء

العاديات كالزوجات وربات المنزل والأمهات والعاملات. ومن هنا أي منذ بداية هذا التحول المفصلي في اتجاه بولان الشعري، يمكننا القول إنها قد تأنثت (feminized)، أو على الأقل قادرة ومستعدة لأن تعمل من خلال أجندتها النسوية المنبثقة. وهي بالكتابة عن الضواحي وسكانها، فإنها استطاعت ان تمد جسرا للوراء حيث التاريخ غير المؤسطر -un mythic history، الذي اكتشفت فيه الحياة الحقيقية والواقعية لأولئك النسوة على العكس من حياتهن المثالية كمخلوقات أسطورية ،تمشي كما الملكات، كما صورهن الشاعر ييتس yeats.

ولو تأملنا ،قصيدة إلى الضواحي Ode to Suburbia، على سبيل المثال، لوجدنا أن ،لمبات المطبخ التي ترقط، ظلام الضواحي، وخوف حدائقها الخلفية من الأماكن الضيقة claustrophobia، وانعكاسات وجوه النساء، ساكنات الضواحي على زجاج نوافذ المنازل، ما هي إلا مظهر من مظاهر الحياة الواقعية و الحقيقية لهؤلاء النساء، وتمثل المشهد السياسي المنبثق من روح المكان والتفاعل الديناميكي بينه وبين الإنسان. وعلى هذا الأساس يجب أن يفهم حضورهن وأهمية الأعمال المنزلية التي يقمن بتأديتها. ومن هنا تخاطب الشاعرة تلك الضواحي المسكونة بالوجود الأنثوي قائلة:

الساعة السادسة، ولمبات المطبخ التي ترقط ظلامك

وربات البيوت يبدأن في التطفل على بعضهن البعض،

وخوف حدائقك الخلفية المصابة بدوالي الشجيرات،

تجعل منك، أيتها الضواحي

أختا قبيحة.

منذ متى لمعَ زجاجُ نوافذك

وتحولَ إلى مرايا تُظهر المرة تلو الأخرى

نفس المرأة، تصرخ كطفل؟

وتتضاعف

كصحن، وفرشاة، ورماد

وتثاؤب سمكة

في المطبخ، وتثاؤب طفل في المهد؟

أنت تنتفخين، حتى إذا ما حاولت لبس

ذلك النعلُ الفضي

قَرَصَ مشط قدمك

وجعل الأذى المشاع

منك إنساناً

ما من مخلوق في الشوارع سيشعر بلمسة

عصى سحريّة تحول عصب الفواكه فجأة

إلى حافلة

بينما هذا الفأر

ويدون لجام جلدي أو سوط

أو بنطال فروسية

مستمر في ازدراد بالوعاتك

لا سحر هنا

لكنك تتجاوزين حتى الريف الخجول،

المخدوع ببساطتك وسقطاتك

ثم ارتفاعاتك من سريرك

تَغيّرَ وتعلمَ للأبد

بمهارتك ومهادناتك

منتصف الليل، وتحولاتك

مكتملة الآن،

رغم أن العقل الذي جعلك عانسا

لا يزال يفتقد غموضك

ولربما لم يزل عاجزا

عن رؤية قوتك

موضحة بهذا التفصيل.

بجانب هذا المخلوق الذي ينعس الآن في كل منزل

نفس الأسد الذي مزق

الحمر الوحشية ذات مرة

ينام الآن،صغيرا بجانب الفحم الحجري

ولربما في يوم فالنتاين

يصيد فأراً.

وبالنسبة لبولاند التي اختارت الانتقال إلى الضاحية بعد قبولها لخياري الزواج والأمومة، فإن الضواحي يمكن ان تكون ملجأ للنساء والأطفال، لكنها أبدا ليست ديرا للراهبات. أما حقيقة أن النساء اللاتي يعشن في تلك الظروف عادة ما ينظر إليهن على أنهن ضعيفات وعاجزات، فإنها تدل على أن إسهاماتهن الحياتية والاجتماعية لا تقدر حق قدرها. إن مثل هذا الوصف للنساء هو ما ترفضه إيفان بولاند في جميع أعمالها. كما انها تحتج على الإنكار على الشاعرة الإيرلندية التي تعيش في الضواحي كتابة القصيدة السياسية؛ لأنه من الطيش- في رأيها- إلغاء عناصر الحياة البسيطة والعادية، التي تكون المشهد السياسي الحقيقي في إيرلندا؛ ولأنه من قلب الضواحي تعطي المرأة للقصيدة السياسية صوتاً جديداً ورؤية جديدة. وقد ينحصر هذا المشهد السياسي في الصور اليومية لقرص الغسالة الكهربائية، أو في التعبير على وجه طفل.. وفي اعتقادها أن كتابة قصائد فقط عن هذه الأشياء التي قد تبدو عادية هو في حد ذاته عمل سياسي. وببساطة فإن محاولة إدراج الحياة التي عاشتها في القصائد التي كتبتها جعلت منها كاتبة سياسية. فحياة النساء اليومية وأعمالهن بدءاً من المطبخ واستخدام

الأجهزة المنزلية كالغسالة والمكنسة الكهربائية، وحتى تعليم الطفل، تشكل موضوعات لقصائد سياسية. فالشعر السياسي عند بولاند يعمل ويؤثر فيما يشبه الدهليز بين البلاغة والحقيقة. وبالتالي فإن كل ما تكتبه المرأة وطريقة كتابتها له يصبح مركزيا لممارسة السياسية في التأليف.

وبفاعلية تشجع إيفان بولاند المرأة الشاعرة، لأن ترفض كل محاولات التقليد الشعري الذكوري لتشيينها كأيقونة. وتحرض النساء المبدعات على تحريك القاعدة التي وضعهن عليها الشعراء الرجال، والتي أقصتهن وأبعدتهن عن المشاركة في الخطاب السياسي. لكنها وخلال نضالها النسوي، لم تسلم من النقد والتهكم. وبعض النقاد كان حادا بشكل خاص مع بولاند. فهذا كالفين بيدينت Calvin Bedient في معرض كتابته عن ديوانها الموسوم بـفي زمن العنف In aTime of Violence، يرى أن افضل عنوان كان يمكن أن يكون «أنا أتحدى سيطرة الرجال في الشعر الإيرلند» أو «أنا» المنقذة للنساء الصامتات أو المخمودات الصوت، أنا بمفردي». على أن القصائد الموجودة في هذا الكتاب تضع بولاند نفسها كامرأة تكتب ببطولة عن الذات وعن النساء الأخريات.

لكن نقادا آخرين يعتقدون أن بولاند بذلك تسهم إيجابيا في التقليد الحكائي الإيرلندي، وفي الوقت نفسه تجعل منه موضوعا

للاحتجاج والشكوى. ويدلل الناقد بن هوارد Ben Howard على ذلك بقصيدة «التقليد الشفهي The Oral Tradition»، وهي قصيدة حكائية تابعة لديوان «الرحلة The Journey (1987)، في كتاب يضم عدداً من الدواوين عنوانه «أصل كأنه الماء (١٩٩٦) An Origin Like Water»، وفي هذه القصيدة تسرد بولاند قصة سمعتها عن امرأة فاجأها المخاض وألم النفاس، لتلد في أحد المروج المكشوفة دون مساعدة من طبيب أو قابلة. والشاهد في هذه القصة أن بولاند سمعت بمحض الصدفة هذه القصة على شكل أغنية تتناقلها النساء شفاهياً، ويتوارثنها الواحدة بعد الأخرى على مر العصور. وما كان لهذه الحكاية أن تجد لها مكاناً في الثقافة الأدبية السائدة لو لم تسمعها بولاند وتجد فيها ملامح بطولية - لامرأة مهمشة- جديرة بالتسجيل والتخليد. لقد أصبح سرد هذه الحكايا وإقحام «الموسيقى الخافتة/لغضبنا The low music / of our rage»، هدفاً بولاندياً نسوياً ملحاً.

ومن جهة أخرى، يمكننا تصنيف هذه القصيدة بأنها قصيدة جينثوية gynocentric poem، أي أنها من نوع القصائد التي تقدر عملية الولادة وتعدها مع المهام الأنثوية الأخرى من حمل ورضاعة، عبئاً تنوء به أكتاف الرجال، وتحدياً فريداً تختص به النساء؛ وتحيل إلى العالم الأنثوي وما يتعلق بجسد المرأة وتجاربها الحياتية كأم وزوجة، والتي يمكن إخضاعها للنقد الجنثوي gynocriticism، الذي أسست له

إلين شوالتر Ellen Shwalter، وهو النقد الذي يهتم بتحليل واستبطان الخصائص الأنثوية للكتابة النسائية. ويشدد أدب النقد الجنثوي Gynocritical literature على مرحلة ما قبل الأوديبية pre-Oedipalphase حيث تشكل الرابطة بين الأم والبنت العنصر الجوهري للهوية الجنوسية. وتتجلى الجينثوية أكثر في قصيدة «الرحلة The Journey من الديوان نفسه الذي يحمل اسمها، وهي من أفضل القصائد وأكثرها شعبية. ففي هذه الرحلة المتخيلة إلى العالم السفلي أو عالم الأموات، تستحضر الشاعرة رحلة بحث دانتي Dante المبكرة، وإذا كان دانتي يقوده فيرجل Virgil، مرشده في الرحلة، فقد كانت الراوية في قصيدة بولاند تتنقل بصحبة الشاعرة الإغريقية سافو Sappho، التي تعدّ الأم الأولى لجميع الشاعرات، والمرجعية لاختيارات النساء وتجاربهن الجسدية.

تقابل الراوية وسافو معاً عدة نساء مجهولات، بعض منهن أمهات مرضعات توفين بأمراض مستعصية. وتبدو أجسادهن وقد نهشها المرض وكأنهن قد تعرضن للاعتداء، بينما جزت حلمة ثدي كل واحدة منهن على شكل بطلينوس أو حيوان رخوي، ملتصقاً ومنهمكاً يرضع الظلام. وأخريات، بأذرعهن المرتخية من التعذيب والإنهاك ذكرنها بصورة «المنتحبة» التي تصور الأم المكلومة العذراء وهي تكابد حزنها على ابنها المصلوب (كما في أدبيات اللاهوت المسيحي). وخلال الرحلة، تحاول

الراوية وسافو شرح مشاهداتهما، وتؤكد سافو أن تلك المناظر المؤلمة والمرعبة، تكشف عن مأساة المرأة، وعن حقيقة الصمت الغارقة فيه جميع نساء الكون اللاتي يتشاطرن بدءاً وأصلاً كأنه الماء.

قصائد معينة في شعر إيفان بولاند كالتي ذكرناها تعكس ولاءها للأجندة النسوية، وتصميمها على الإعلاء من شأن التجربة الأنثوية وإضفاء صبغة إيجابية عليها. وهي تستخدم ما يمكن أن يسمى «اللغة الأم Mother Toungue»، التي تمثل مورفولوجيا جنسية إنثوية خالصة، والتي من ضمن جمالياتها التشديد على التفرد الإبداعي للتركيب الغريزي في جسد المرأة. وهي إذ تخلع قناع الأسطورة وتكشف النقاب عن حقيقة ميدوزا (Medusa) (إحدى الثواليث المرعبة أو الجرجونات الثلاث في الميثولوجيا الإغريقية اللواتي تنبت الأفاعي في رؤوسهن بدل الشعر ويتحول كل ما تقع عليه أبصارهن إلى حجر)، فإن الشاعرات النسويات أمثال بولاند يكتبن أجساد جميع النساء، بعد أن يغمسن أقلامهن في تفاصيلها الأنثوية.

وقفات مع قصائد الشاعرة بولاند

وتكشف عدة قصائد استعداد بولاند للكتابة مباشرة بلغة الجسد أي بتوظيف التكنيك اللغوي للكشف عن التجربة الجسدية للمرأة بكل معاناتها وإلقاء الضوء على المؤثرات الفسيولوجية الخاصة التي تمر بها. وكثير من هذه القصائد تضمنها ديوان "في صورتها الخاصة (١٩٨٠)

ومنها قصيدة «استئصال ثدي Mastectomy»، التي In Her own Image يغلب عليه الصراع بين الذكر والأنثى، وفيها تواجه المتكلمة /persona الشاعرة، ثلة من الجراحين وهم يقبضون على انصال السكاكين استعدادا لسلب المرأة/ الضحية جزءاً مهماً من جسدها يعدّ رمز انوثتها بدافع الحسد؛ وتصور هؤلاء الأطباء الذكور، بأنهم جزارون وسارقون، وهم يحاولوا الهروب بالثدي بعد أن جزوه. وتؤدي الرسمة المصابة للقصيدة، كبقية الرسومات في الديوان، دوراً صادماً إذ تظهر جراحاً ذكرا مؤتزرا معطفه الطبي، وهو يمرر الثدي الموضوع في صحن تقديم إلى جراح ذكر آخر في معطفه الطبي. وتصرخ المرأة التي خضعت لهذا الانتهاك الجسدي والنفسي بيأس «أتمدد منطفئة/ لسلبهم /I flatten to their looting»، وتستمر:

«إذا فقد اقتلعوا/ ما كان يرعبهم منذ البدء، ما كانوا يكرهون آنذاك/ بعروقه الزرقاء وقبته البيضاء What they have hated since/blue-veined/white-domed».

وفي قصيدة «الطمث Menses»، توضح الشاعرة تأثير دورة الخصوبة النسائية الشهرية ومكابدة الأنثى معها جسدياً ونفسياً، معلنة تبرمها ومللها «أنا مريضة منها/ ممتلئة بها/قاتمة بسببها/وثخينة بها. I am sick of it/filled with it/dulled by it/thick with it»، لكنها في الوقت نفسه تلفت الانتباه إلى القوى الطبيعية، التي تعتمل وتعمل داخل

جسدها. وبينما هي غارقة في مياهها وقوى المد والجزر، تستولي على جسدها، يظل عقلها حراً ومتوهجاً.

وفي قصيدة «فاقدة الشهية Anorexic»، تكتب عن حواء، التي تكره جسدها وتحتقر استدارته والأنوثة الطافحة في ثناياه، وها هي تصوره وتجسده في شخص امرأة ساحرة تتلبسها:

اللحم زنديق
وجسدي ساحرة
سأحرقه
اجل، سأشعل
التواءات
تلك الساحرة
وحلمتها وأثداءها
فهم يشيطون في ثنايا
إنكاري لذاتي
وهي التي لونت رأسي
بنصف حقائق حمُاها
إلى أن تخليتُ
عن الحليب والعسل
وطعم وجبة

الغداء.

تقيأتُ

جوعها

وها هيِ الساقطة

تحترق

وها أنا الأن

اتضور جوعاً

بلا انثناءات

أنا جلد وعظم

لقد استوعبَتْ

درسها

نحيلة كضلع

أستسلمُ للنوم

وتطل أحلامي

خوفا من العزلة

تقوقعُ حسي

كم كان دافئاً

وعريضاً

مرة بطبل دافئ

ومرة بترنيمة أنفاسه

وفي جنبه النائم،

فقط قليلا أكثر،

فقط بضع أيام أكثر

بلا ذنب، بلا طعام

ولسوف انزلق

ثانيةً إليه

كما لو لم أبتعد

أبداً

سجينة هكذا

سأغدو

نحيلة جداً

ومقدسة

وسيرافق الألم السابق

قلبَهُ

مثلما سينسيني

السقوط

في فضاء صغير

وفي لجة ظلمةٍ

متشعبة

ورغبات أفعى

ضخمة

لأنتفخ وأمور

أوراكاً وأثداءً

وشفاهاً وحمًى

وعرقاً ودهناً

وشراهةً

ونهماً

المصابات بمرض فقدان الشهية يكرهن الغريزة الحسية في أجسادهن. كما أن مرض الأنوركسيا نفسه يؤدي إلى انقطاع الطمث، وفي أشد حالاته، يؤدي إلى الموت. وأسطورياً، قد تدل الأنوركسيا على مجهود من جانب المرأة الكارهة لنفسها في تحويل جسدها الأنثوي لما يقارب جسم الرجل. والمتكلمة persona في قصيدة «فاقدة الشهية Ano-rexic»، تزهد في الحليب والعسل، وطعم الغذاء لتحرر نفسها من آلام النفاس والحيض، والتي تعتبرهما عقاباً أنزله الله عليها بسبب حواء وغوايتها. وجوهر القصيدة في رأيي هو محاولة الشاعرة التأكيد على الحاجة الماسة إلى نقش جسد الأنثى في أبجديات التقليد الأدبي literary canon، وإدراجه ضمن الأعمال الأدبية بعد تحريره من الرموز

الشيطانية التي خلعتها عليه المخيلة الذكورية؛ ليسقط عليها الرجل خوفه وضعفه أمام الجسد، واعتباره مظهرا من مظاهر الذات الأنثوية وليس عائقاً أو شيئاً سلبياً.

وتبقى قصيدة «فاقدة الشهيه Anorexic» أو «مريضة الأنوركسيا» من اكثر قصائد بولاند جينثوية gynocentric وهي بلا شك من أكثرها شرحاً لجسد المرأة ونفسيتها، وكذلك أكثرها تحدياً لعالم محكوم بالذكورة، حيث الألم الأبدي، هو العقاب المناسب لأخذ قضمة من تفاحة. كما أنها في هذه القصيدة تتفوق على نفسها، وتذهب أبعد من تحدي الميثولوجيا، أو الأسطورة إلى اختراقها والنضال بعمق ضد أبعادها الجنوسية أو مكونها الجنوسي gendered الذي شكل الخطاب الغربي لعصور عديدة.

وهنا، كما تشير لوزمار كونزيلاس إرياس Conzales Arias Luz Mar ترفع بولاند من قدر حواء، وتراجع أسطورتها وقصتها مع التفاحة لتنصفها وتنصف بنات جنسها. وذلك يربط بولاند بجميع النساء اللاتي يناضلن، من خلال تنقيحهن للميثولوجيا أو الأسطورة، لتصحيح الصورة المشوهة التي أسقطتها قصة الخلق في سفر التكوين Genesis على جنس النساء. ولربما كان لذلك دلالة خاصة في السياق الإيرلندي والأرض السلتية اوالغيلية Gaelic، التي كان دخول النصرانية إليها وانتشارها متزامناً مع اختفاء ما يسمونه (الربات) السلتيات

goddesses Celtic القـويات بأنوثتـهن الطاغيـة وتاثيـرهن الحـسي والمعنوي. وفي اعتقادي أنه عندما تكتب بولاند أن حواء المريضة بمرض الأنوركسيا تنظر الى جسدها على أنه منشق heretic، وأنها تحرق جسد الساحرة فيها (My body is awitch/ iam burning it)، فإنها تنتقد وترفع صوتها ضد الأسطورة الأصلية التي سحقت النساء، وأحالتهن إلى مجرد موضوعات وأهداف جنسية.

وإذا ما نظرنا بشكل عام إلى مجمل أعمال بولاتد، سنجد أنها تمثل نقلة جوهرية للنساء المقموعات، اللاتي بتن يفضلن الكلام وإحداث ضجة مهما كان ذلك صعباً او محرجاً، حتى وإن حرمهن ذلك المديح والإطراء، على أن يبقين في دهاليزهن الصامتة. وإيفان بولاند لا تتحدى فقط سلطة وأولية التأويلات التراثية والتقليدية المتعلقة بالمراة وكينونتها، ولكن تتحدى أيضا صحتها ومصداقيتها. وهي بلا شك مهمة تستحق العناء.

Bibliography المراجع

Primary Sources

Eavan Boland

a. Poetry

Boland, Eavan. In a Time of Violence. Manchester: Carcanet, New York: Norton, 1995

- In Her Own Image. Dublin: Arlen, 1975

- The Lost Land. New York: Norton, 1998

- An Origin Like Water: Collected Poems 1967-1987. New York: Norton, 1996.

- Outside History. Manchester: Carcanet,1990.

b. Prose

Boland, Eavan. A Kind of Scar: The Woman Poet in a National Tradition. Dublin: Attic

- Object Lessons. New York: Norton, 1995

c. Interviews

Boland, Eavan. "A Backward Look: An Interview with Eavan Boland." By Jody Allen-Randolph.PN-Review (PNR) 26:5 (2000): 43-48

- "Eavan Boland." By Rebecca Wilson. Sleeping with the Monsters; Conversations With Scotish and Irish Woman Poets. Gilean Somerville- Arjat and Rebecca E. Wilson, eds Edinburgh: Polygon Press, 1990: 79-91.

- "An Interview with Eavan Boland." By Marilyn Reizbaum. Contemporary Literature 30.4 (1989): 470-79.

- "An Interview with Eavan Boland." By Deborah McWilliams Consalvo. Studies 81 (1992): 99-100.

Secondary Sources:

Abrams, M.H. A Glossary of Literary Terms. New York: Harcourt Brace, 1993.

Arias, Luz Mar Gonzalex. "Foodless, Curveless, Sinless: Reading the Female Body in Eavan Boland's Anorexic." Outskirts Online Journal 2000 http://www.mmc.artsuwa.educau/chloe/outskirts/archievevol2/ Feature3/html.

Bedient, Calvin "The Crabed Genius of Balfast." Parnassus: Poetry in Review 16 (1): 195-217.

Gilbert, Sandra M., and Susan Gubar. The Mad Woman in the Attic: The Woman Writer and the Nineteenth -Century Literary Imagination. New Haven: Yale Up, 1979.

Gonzalez, Alexnder G., ed. Contemporary Irish Women Poets. Westport: Greenwood, 1999.

Heaney, Seamus. The Selected Poems of Seamus Heaney: 1966-1987. New York: Farrar, 1990.

Ni Chuilleanain, Eileen. Ed. Irish Women: Image and Achievement. Dublin: Arlen, 1985.

Yeats, William Butler (W.B). Collected Poems. Ed. Augustine Martin. London: Arrow, 1990.

- The Variorum Edition of the Poems of W.B. Yeats. Ed. Peter Alt & Russell Alspach. London, New York: Macmillan, 1966.

الكاتبة في سطور

فاطمة إلياس حسين قاسم

- أستاذ مساعد في قسم اللغة الإنجليزية، كلية التربية، جامعة الملك عبدالعزيز في جدة.
- ماجستير أدب إنجليزي/شعر، جامعة ولاية ميزوري الحكومية، الولايات المتحدة الأمريكية (Central Missouri State University, USA).
- دكتوراه في نقد الشعر النسوي، بعنوان:

The Image of Women in Contemporary Female Irish Poetry

- عضو هيئة تحرير «علامات»، نادي جدة الأدبي.

■ من البحوث التي نشرت :

"The Influence of Arabic Literature On European Medieval Romance"، «التواصل اللساني»، المغرب.

- «الأم شحاتة: قراءة نسوية لمعاني الأمومة عند حمزة شحاتة»، علامات في النقد، نادي جدة الأدبي.
- «لغة الجسد: أيقونة الجسد في الشعر النسائي، ترجمة، نوافذ، نادي جدة الأدبي.
- «شهريار حيا.. شهريار ميتا: الولاء في الخطاب الأنثوي عند أمل شطا»، علامات في النقد، نادي جدة الأدبي.
- «الأسطورة والجنوسة في أعمال رجاء عالم»، بيت الحكمة، تونس.
- الأبوية في روايتي جاهلية ووجهة البوصلة»، بيت الحكمة، تونس.

■ من إنتاجها الأدبي:

*"A man and Six women: A Feminist critique of the Patriarchal and Imperialist Ideologies in Conrad's *Heart of Darkness*".

*"When Death Approaches: A Study of Whitman's Growing Spiritual Consciousness".

*" History Dramatized and History fictionalized in Vidal's and Flanagan's *The End of the Hunt*".